وتداركوا العرب الكرام وهوّنوا ما قد تجشّمهم من الهذوان
لا تسمعوا متحزمين تخيّلوا من قدرهم بالافك والبهتان
فهم كما شاء الاله أعزّة لن يهرموا أو يهرم الفتيان
شهدت لهم اقوالهم وفعالهم بشبابهم في خدمة الاوطان
ومشت على اثارهم فتيانهم والسرّ كل السرّ في الفتيان

الخرطوم فؤاد الخطيب

رحلة بارتيا الى الحجاز واليمن والهند

(تابع ما قبله)

ذكرنا في الجزء الماضي وصول بارتيا مع الركب الشامي الى المدينة ونأتي الآن على وصفه لها ولمكة وجدة وارتحاله من الحجاز الى اليمن قال

وللمدينة سور مبني بالطين [1] لكن بيوتها مبنية بالحجر الصلد والبلاد حولها قفر بلقع لا نبت فيه لكن على رمية سهم منها حديقة من النخل فيها قناة للماء ينزل اليها على ادراج لا يقل عددها عن اربعة وعشرين درجاً ومتى وصل الحجاج استولوا على هذا الماء [2]

واقمنا في المدينة ثلاثة ايام زرنا فيها كل المشاهد التي هناك ففي اليوم الاول من وصولنا اليها دخلناها من الباب المحاذي للمسجد ومع كل واحد منا رجل يأخذ بيده ويريه قبر النبي. والمسجد مستطيل طوله مئة خطوة وعرضه ثمانون وله ستة ابواب في ثلاث جهات منه في كل جهة بابان وله سقف مقبّب على ثلاثة جوانب منه وعدد سواريه أكثر من اربع مئة وهي من الحجر المحروق مطلية بالجير. وفي المسجد نحو ثلاثة آلاف مصباح [3]

وفي الجانب الايمن من المسجد بناء مربع عليه ستارة من الحرير وحوله حاجز من المعدن

(١) قال برتن ان هذا السور من بناء قاسم الدولة الغوري. وهو الآن مبني بالحجر الحجب والحجارة ومعقود بالجير بناه السلطان سليمان (٢) هي المعروفة الآن بحدائق قباء. قال ابن جبير وقباء قبلي المدينة ومنها اليها نحو الميلين وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة والطريق اليها بين حدائق النخل المتصلة (٣) قال ابن جبير وطول المسجد الكريم مئة خطوة وستون خطوة وسعته مئة وست وعشرون خطوة وعدد سواريه ٢٤٠ وهي من حجر مخروت قطعاً قطعاً مطلية مثنية توضع اثر في ذكر وبيرغ بينها الرصاص المذاب وتكسى بفلائة جيار وبالغ في صقلها ودلكها فتصير كأنها رخام أبيض. وقال برتن ان طول المسجد ٤٣٠ قدماً وعرضه ٤٠٠. والمسجد يُنار الآن بالكهربائية

جميل الصنع يقف امامهُ الزائرون وفي الجانب الايسر من الحاجز بابٌ يؤدي الى البناء المذكور وفي البناء باب آخر صغير وعلى مقربة من احد هذين البابين نحو ٣٠ كتابًا وبازائهما ٣٥ كتابًا وهي كتب النبي والصحابة[1]. وداخل الباب الصغير قبر النبي وعلي وابي بكر وعثمان وعمر وفاطمة[2]

ثم ذكر الكاتب ارتحالهُ من المدينة ووصولهُ الى مكة فقال في وصف مكة . هي مدينة غاية في البهاء غاصة بالسكان فيها نحو ٦٠٠٠ بيت ومساكنها حسنة جدًا مثل بيوتنا وربما بلغ ثمن الواحد منها ثلاثة آلاف دينار او اربعة آلاف . وقبل وصولنا الى المدينة رأينا جبلاً على ربع ميل منها فيهِ شعب مخموت باليد[3] هبطنا منهُ الى منبسط من الارض . والمدينة لا اسوار لها تحصنها الجبال المحدقة بها ويدخل اليها باربعة ابواب . وصاحب مكة من الاشراف وهو واحد من اربعة اخوة كان القتال دائمًا بينهم

وكان وصولنا الى مكة في الثامن عشر من شهر مايو فدخلناها من شمالها حيث هبطنا الى منبسط من الارض قبل دخولنا اليها . وفي الجانب الشرقي منها شعب في الجبل يسير فيهِ الحجاج الى الجبل الذي يخرون فيهِ الاضاحي يوم العيد و يبعد هذا الجبل عن مكة من ثمانية اميال الى عشرة وفي اعلاهُ مسجد لهُ ثلاثة ابواب[4] وفي صحنهِ مصنعان للماء احدهما للركب المصري والآخر للركب الشامي ويجتمع فيهما الماء من المطر ويجري اليهما من مسافة بعيدة

ولما وصلنا مكة وجدنا الركب المصري قد وصل قبلنا بثمانية ايام لان طريقهُ غير طريقنا وقد كان مع الحجاج المصريين ٦٤٠٠٠ جمل ومئة مملوك لحراستهم

والبلاد المحدقة بمكة قفر لا نبت فيهِ ولا شجر والماء قليل جدًا والزاد يجلب اليها من مصر

---

(١) البناء هو الحجرة النبوية . وقد ورد ذكرهذه الكتب في رحلة ابن جبير قال : وبينها (اي الروضة الصغيرة) وبين القبر المقدس تحميل كبير مدهون عليهِ مصحف كبير في شناء متقل عليهِ هو أحد المصاحف الاربعة التي وجه بها عثمان بن عفان رضي الله عنهُ الى البلاد و بازاء المنصورة الى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محشوتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك . انتهى . وذكر برتن ان الكتب التي في المسجد كانت في ايامه محفوظة في خزانات كبيرة قرب باب السلام (٢) لم يدفن هناك من الصحابة غير ابي بكر وعمر والكتاب مختلفون في قبر فاطمة قال ابن جبير : ويقال هو قبرها والله اعلم بحقيقة ذلك

(٣) يظن برتن ان هذا الشعب هو ثنية كداء . والثنية الطريق في الجبل . وكداء هي التي عناها حسان بقولهِ (تنير النقع موعدها كداء) . قال الازرقي ان يحيى بن خالد البرمكي فتح هناك طريقًا في الصخر الصلد (٤) هي طريق الحجاج الى منى وعرفات . والجبل الذي ذكرَ جبل الرحمة والقضية في منى لا في الجبل كما ذكر . قال ابن جبير : وفي اعلى الجبل قبة تنسب الى ام سلمة رضي الله عنها ولا يعلم صحة ذلك وفي وسط القبة مسجد

واليمن والحبشة عن طريق جدة . ورأيت فيها كثيرين من حجاج الحبشة والهند وفارس والشام ولم ارَ قط جمعاً كبيراً من الناس كالذي رأيتهُ في الايام التي اقمتها هناك . والذين يقصدون مكة في زمن الحج ليسوا كلهم حجاجاً بل ان كثيرين منهم ياتونها للاتجار . ولها متاجر واسعة مع كثير من البلدان فيأتيها من الهند الكبرى الحجارة الكريمة والطيب والافاويه وتاتيها بعض الافاويه من الحبشة ايضاً وتجلب اليها امتعة القطن والحرير من مدينة بنغال

ثم وصف الكاتب الكعبة وغيرها من مشاهد مكة والطواف والاستغفار والتضحية وغير ذلك من شعائر الحج . ووصف حمام مكة وكثرة عددهِ وقال ان صيدهُ محرم وذكر انهُ رأى حريشين (٢) في جانب من جوانب الحرم اعدادهما سلطان زيلع الى صاحب مكة وقدم وصفها في الصفحة ٤٣٩ من المجلد الرابع والثلاثين من المقتطف . ثم وصف فرارهُ من مكة الى جدة فقال

اتفق انني خرجت لشتري بعض الحاجات لامير المماليك فرآني تاجر من اهالي مكة واخذ يتفرّس فيَّ ثم قال لي « انت منين (٣) » قلت انا مسلم قال « انت كذّاب » قلت « ورأس النبي انا مسلم » . قال « تعال الى بيتنا » فسرت معهُ فلم نكد نصل الى البيت حتى اخذ يكلمني بالايطالية واخبرني انهُ يعرف من اين جئت الى مكة واني لست مسلماً وانهُ سافر قبلاً الى جنوى والبندقية وايّد كلامهُ بالبرهان فلما سمعت ذلك منهُ قلت لهُ انني رجل من اهل رومية اتيت مصر وصرت فيها مملوكاً فلما سمع ذلك سُرَّ كثيراً واكرمني غاية الاكرام . ثم اخذت احدثهُ لعلي ارى من حديثهِ ما اتمكن بهِ من ايجاد سبيل الى الفرار فقلت لهُ ان كانت هذه مكة المشهورة بتجارها فاين الحجارة الكريمة التي فيها واين ما يجلب اليها من الامتعة والطيب . قلت لهُ ذلك لعلهُ يخبرني عن السبب الذي لاجلهِ لم تصل البضائع الى مكة كالمعتاد فاني لم أرد ان افاتحهُ باسم ملك البرتغال وانهُ كان السبب في ذلك . فاخذ يقص عليَّ حديث ملك البرتغال وانهُ كان السبب في منع التجارة عن مكة فاظهرت الحنق الشديد وانهلت بالسب والشتم على الملك حتى لا يظن ان تغلّب المسيحيين يسرني (٤) . فلما

(١) كركدن وقد ذكرها بلفظ وحيد القرن (٢) نقلنا كلامهُ هنا كما هو فقد ذكر هذه الالفاظ العربية بحروف افرنجية (٣) كانت الحرب ناشبة في تلك الايام بين البرتغاليين والعرب . قال صاحب قرة العيون في اخبار اليمن الميمون في حوادث سنة ٩٠٨ « اي قبل وصول بارتيما الى مكة بسنة واحدة » « وفي هذه السنة ظهرت مراكب الافرنج في البحر بطريق الهند وعمرز وتلك النواحي واخذوا نحو سبعة مراكب وقتلوا اهلها » . وصاحب هذا التاريخ هو وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الزبيدي توفي سنة ٩٤٤ فتكون هذه الحوادث قد حدثت في ايامهِ . وقد ذكر في تاريخهِ الوقائع التي جرت بين الشريف بركات واخوتهِ وهم هزّاع وابجاوالي وحيضة وكانت الحرب سجالاً بينهم الى ان قتل الشريف ابجاوالي عند باب الكعبة فقلد خماعة من الترك وولى اخاهُ حيضة ثم عاد الشريف بركات وتولى مكة مرة ثانية .

رأى اني اظهرت العداء للمسيحيين زاد في اكرامي فقلت له هل لك ان تخلصني وتجد لي بابًا للهرب من مكة حتى لا اعود مع الركب لاني احب ان اتصل باعداء المسيحيين لانهم اذا عرفوا مقدرتي بحثوا عني واخذوني ولو كنت في مكة قال وما تقدر ان تفعله لاعداء المسيحيين قلت اني ابرع الناس في عمل المدافع فلما سمع ذلك قال اني احمد الله الذي ارسل رجلاً مثلك لنصرة المسلمين . ثم اتفقنا على ان يخبئني في بيته وانا اتوسط له لدى امير المماليك فيخرج له من مكة ١٥ جملاً محملة طيوبًا فيتخلص بذلك من الجعل الذي كان عليه ان يدفعه الى امير مكة وهو ٣ اشرفيًا . وقبل خروج الركب الشامي من مكة بيوم خبأني في بيته فكنت وانا مختبئ عنده اسمع المنادين وقد خرجوا قبل الفجر بساعتين ومعهم الطبول والابواق وهم يدعون المماليك الى الرحيل ويقولون ان كل من تخلف منهم جزاؤه القتل فوقع الرعب في قلبي واخذت اتوسل الى امرأة التاجر ان تحميني . وسافر الركب وسافر التاجر معه واوصى امرأته ان ترسلني مع قافلة الهند السافرة الى جدة . وان لساني ليقصر عن وصف ما لقيته من الاكرام من هذه السيدة وابنة اخيها البالغة من العمر خمس عشرة سنة وقد رغبتاني في البقاء في مكة لكنني امتنعت عن ذلك خوفًا فودعت السيدتين وهما تذرفان الدمع وسافرت مع القافلة الى جدة . ولما انتصف الليل اناخ في قرية على الطريق[1] وبقينا فيها الى منتصف النهار وسرنا منها الى جدة فدخلناها قرب منتصف الليل

وجدة لا سور لها وبيوتها حسنة البناء مثل بيوتنا وتجارتها واسعة لكثرة ما يأتي اليها من المسلمين . اما المسيحيون واليهود فلا يسمح لهم بالدخول اليها . ولما وصلت المدينة اسرعت الى احد المساجد وكان فيه نحو ٢٥٠٠٠ رجل من فقراء الحجاج فاغتبأت في احدى زواياه وكنت في النهار اضطجع على الارض واكثر من الانين كاني في اشد الالم لكان التجار الذين يدخلون المسجد يقولون من هذا الرجل فيجيبهم الفقراء هو رجل في نزاع الموت . وكنت اذا جن الليل اخرج من مضجعي مختفيًا فاشتري ما اسد به الرمق ثم اعود الى المسجد وبقيت على ذلك ١٤ يومًا . واخبر جدة من اخوة الشريف بركات صاحب مكة . والبلاد هناك قاحلة لا تنبت شيئًا وماء المدينة قليل جدًا لكن فيها كل لوازم المعيشة تجلب اليها من مصر واليمن وغيرهما من البلدان والامراض كثيرة بها لان هواءها وبيل على ما يقال

ولقيت هناك رجلاً اتفقت معه على ان يحملني في مركبه الى بلاد الفرس . والسفن كثيرة في جدة فقد كان في ميناها نحو مئة منها . ولما اقلعنا سرنا يومنا الى ان غابت الشمس فرسا بنا

(١) في جدة بضم الجيم المهملة قرية في نصف الطريق بين مكة وجدة

المركب ثم اقلعنا في الصباح الى ان نحيم الظلام وهذا كان دأبنا في السير لان ملاحة البحر الاحمر لا تخلو من الخطر لكثرة ما فيهِ من الجزر والصخور فكان النوتية يقيمون رجلاً في رأس السارية يشرف على طريق البحر[1]. وما زلنا نسير نهاراً ونقف ليلاً الى ان وصلنا الى جزيرة قران فكان السير بعدها متواصلاً لا ينقطع . وبعد مسير ستة ايام (من جدة) وصلنا الى مدينة تدعى جيزان وجدنا في مرساها خمساً واربعين سفينة لشعوب مختلفة . والمدينة على ساحل البحر وخيراتها كثيرة ففيها الضب والخوخ والسفرجل والرمان والثوم والبصل والجوز والبطيخ والورد والدراقن الزهري والتين والفرع والاترج والليمون والتاريخ الحامض فهي جنة من الجنان . واللحوم فيها كثيرة وكذلك الحبوب كالشعير والذرة البيضاء ويصنع من هذه الذرة نوع جيد من الخبز فاقمنا هناك ثلاثة ايام اشترينا فيها مؤونة السفر

ثم اقلعنا من جيزان وصرنا قرب الساحل جاعلين البر الى يسارنا وفي اثناء السير رأينا قرية فنزل منا اربعة عشر رجلاً لشترى بعض الحاجات فلما رآنا الاهالي اخذوا يرمونا بالمقاليع وكان عددهم نحو مئة رجل فنشب القتال بيننا وبينهم ولم يكن معهم من السلاح غير مقاليعهم فقتلنا منهم ٣٤ رجلاً وهرب الباقون ونهبنا ما قدرنا عليهِ من الدجاج والبصول والثيران وغير ذلك من المآكل واسرعنا الى المركب لان السكان جمعوا شملهم وعادوا الينا وكان عددهم قد زاد فصاروا ٦٠٠ رجل . ثم انحرفنا في المسير الى قران وهي جزيرة محيطها بين عشرة اميال واثني عشر ميلاً وفيها قرية عدد بيوتها نحو مئتي بيت اهلها مسلمون كلهم . واللحوم فيها كثيرة ومياهها عذبة والملح الذي يستخرج منها احسن ما رأيت من نوعهِ . ولما ميناء في الجهة المقابلة للبر على بعد ثمانية اميال منهُ . وصاحب الجزيرة امام اليمن وهو سلطان تلك البلاد

ثم اقلعنا من قران ووجهتنا بوغاز باب المندب فلما وصلنا اليهِ وجدناهُ ضيقاً جداً لا يزيد عرضهُ على الميلين او الثلاثة والبر على الساحل الايمن لا يرتفع اكثر من عشر خطوات وهو غير مسكون . اما البر على الجانب الايسر ففيهِ جبل مرتفع وفي الوسط جزيرة تدعى باب المندب[2] فالمراكب التي تسير الى زيلع تاخذ الطريق الايمن والمراكب التي تسير الى عدن تاخذ الايسر فسرنا على هذا الطريق جاعلين الجزيرة عن يميننا فوصلنا عدن بعد مسير يومين ونصف يوم

(١) قال ابن بطوطه وهذا البحر لا يسافر فيهِ بالليل لكثرة احجاره وانما يسافرون فيهِ من طلوع الشمس الى غروبها ويرسون ويتزلون الى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب . وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال ابداً في مقدم المركب يتبعه صاحب السكان (اي الدفة) على الاحجار

(٢) لقد اخطأ في تسمية الجزيرة باسم البوغاز . وهي جزيرة صغيرة من املاك بريطانيا يسميها الافرنج جزيرة بريم والعرب جزيرة ميون